Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 15-16:2 (1980-81

اهمية اللغة العربية فى القرن الخـــامس عشر الهجـــرى

الدكتو ر : قاضى محمد مبارک

الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بشاور

قبل التكلم عن أهمية اللغة العربية فى القرن الخامس عشر الهجرى يجدر بنا ان نعود قليلا الى الوراء ، ونلقى نظرة عابرة على الدور الذى قام به اللغة العربية فى جميع ميادين الحياة ـ وذلک ان الحياة الاسلامية كحلقة واحدة لا يمكن ان تنفصل بعضها عن بعض ، وفى القاء الضوء على ما كان من العمل الايجابى الفعال للغة العربية ، يمكننا ان نستفيد من ذلک فى حياتنا المستقبلة .

وقد شرف الله تعالى اللغة العربية بانزال كتابه فيها ، وجعـل القـرآن الكريم قرآنا عربيا ودستورا للامة الاسلامية وحفظه من أن يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه ، وختم به الكتب السماوية ، وأكمل به الدين الحنيف فقال غر من قائل : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ـ ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وكانت هذه اللغة قبل نزول القرآن الكريم لغة الفصاحة والبلاغة وكانت قد بلغت الىٰ ذورة من الكمال ، وكان الكلام العربى يعتبز فى قمة من القوة والسبک المتين ، وكان العرب يتبارون فيما بينهم فى الخطابة ، والشعر ، وكانت الأسواق تقام لهذه المساجلات الشعرية والخطابية فى مختلف الانحاء من الجزيرة ـ وبعد ما نزل القرآن الكريم قالت هذه اللغة شرفا أكثر من ذى قبل وتمكنت من التوسع

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

والنشر والازدهار ، وذلک لاحتوائه على الاسلوب الألهى المتين الـذى يعجـز الانسان أمام قدرتهٌ . ولعلوه فى درجة الفصاحة والبلاغة حيث جعل هذا الكتاب المجيد المنزل على محمد ﷺ من قبل الله تعالى معجزة ابدية لنبوته ـ وقد رأينا بأن هؤلاء العرب قد حاولوا كثيرا ان ينقصوا من شانه ، ولكن لم يتمكنوا من ذلک ، كما ان الله تعالى تحداهم ايضا وطلب منهم ان يأتوا بسورة من مثله ان كانوا فى ريب من هذا القرآن ، ولكنهم قد عجزوا امام هذا التحدى ولم يتمكنوا من ذلک ـ هكذا كان القرآن الكريم واثره فى اللغة العربية .

هذا من ناحية البلاغة ـ واما من ناحية التبليغ ونشر الاسلام فان اللغة العربية قامت بدور فعال فى هذا السبيل ، وهى التى قد شرقت وغربت حتى وصلت فى الغرب الى جبال الالب ، و فى الشرق الى بلاد الصين ـ وكانت تقوم بنشر التعاليم الاسلامية الصافية فى اسلوب جميل رصين ، وكانت تقدم هذه التعاليم فى الصورة التى نزل بها القرآن الكريم ، لان جميع الناس كانوا يستقـون العلـم والارشاد من المنبع الاصيل مباشرة بدون التراجم أو التـأويلات المعوجة فقد رأينا ان الاسلام انتشر فى عصر النبى ﷺ ، و عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى الجزيرة العربية ، وفى عصر الأمويين خرج من الجزيرة العربية الى كثيـر من البلدان بسرعة فائقة قد تحير الناس من هذا الانتشار ، واللغة العربية كانت تقوم بجميع هذه الامور التى كانت لازمة للنشر الاسلامى فى هذه البلاد .

وبجانب ذلک ، قد وسعّت اللغة العربية صدرها للعلوم ففى الزمن الأموى وقبله وجد فيها العلوم كالتفسير ، والقراءات ـ والنحو ، والصرف ، والبلاغة وما الى ذلک ، وفى العصر العباسى قد رأينا ان هذه الامور قد ازدهر أكثر ، وكان هذا العصر يسمى بالعصر الذهبى ، وذلک لازدهار العلوم بكثرة لم يوجد لها مثيل لان العلوم العربية والاسلامية التى كانت وجدت من قبل قد توسعت ، واما العلـوم الاجنبية كالمنطق والطب والفلسفة والعمران ، وغير ذلک ، وقد ترجمت كتبها من

اللغة اليونانية والهندية ، والفارسية وغيرها الى اللغة العربية التى كانت ترحب بهذه العلوم ، وتوسع لها صدرها ، وتجعلها فى قالب عربى جميل اخاذ يظهر ويبدو لك ان هذه العلوم كانت موجودة فى هذه اللغة من قبل .

والفكر العربى الاسلامى ، واقصد به الفقه ـ واصول الفقه ، فقد وصل الى ماوصل اليه من النضج والكمال صير الناس ولازال العالم الاسلامى وغير الاسلامى شرقيا كان أو غربيا يستقى من معينه الصافى ، ومكاتب الفكر العربى كانت كثيرة ، وكل مكتب فكرى كان يحاول ان يستخرج الكنوز العلمية الصحيحة من القرآن الكريم والاحاديث النبوية ، ولم يكن صاحب أى مكتب يخالف الآخر فى الاصول ، وانما كان الاختلاف فى الفروع ، وكل واحد كان يجعل نصب عينه ان يكون قريبا الى المصدر الرئيسى ـ القرآن الكريم ـ وهذه المكاتب الفكرية اشتهر منها مكتب الامام مالك رحمة الله عليه ، والامام ابى حنيفة رحمة الله عليه ، والامام الشافعى رحمة الله عليه ، والامام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ـ ولازالت رائجة فى العالم الاسلامى ـ وهؤلاء الائمة قد خدموا الاسلام خدمة حقة ، وكان ذلك بفضل تمكنهم من اللغة العربية علومها ، وآدابها ، حيث كانوا يقرؤن القرآن والاحاديث النبوية فيستخرجون منها ما تحتاج اليه الانسانية من شئونها الحيوية فى الدنيا والآخرة .

واللغة العربية لم تكن بخيلة ، ولم تكن تقصر العلوم على المسلمين فقط وانما كانت تقدم المعارف الى الجميع اراد أم لم يرد ، لانها لغة القرآن ، والقرآن للعلمين ، فارادت اللغة ان توصل هذه التعاليم القرآنية هى لخير البشرية الى جميع العالم ، فنرى ان اللغة العربية قامت فى بلاد الاندلس من الدور الفعال فى توصيل العلوم ونشر الضوءالعلمى فى البلاد الاوربية ـ وكان الاندلس بمنزلة الجسر لتوصيل علوم المشرق الى بلاد المغرب ـ ويقول فى ذلك الكاتب الانجليزى :

ما كان احلى قصور قرطبة ، وحدائقها ، ولم يكن مايصير الاعجاب اقل

روعة وابداعا ، كما كانت المدينة نابضة بالحياة ـ أما النشاط الفكرى فكان حيا كالمدنية ذاتها ـ لقد جعلها الاساتذة ، ورجال العلم كعبة للثقافة فى أوربا ، فكانوا عشاق المعرفة يزحفون اليها من كل حدب ليتلقوا علومهم على يد أولئك المفكرين الكبار .

وكما يقول الفيلسوف رينان » عن الحركة العلمية والأدبية فى الاندلس

كان الذوق العلمى ، والتذوق الادبى قد تقررت قواعدهما فى القرن العاشر الميلادى فى تلك البقعة المتميزة عن العالم ـ وكان هذان قد بلغا مستوى لايضارعه المستوى الحديث ، وكانت روح التسامح ، سائدة بين السكان وحرية الفكر نبع يستقى منه الجميع ، فكان اليهود والمسيحيون ، والمسلمون يتخذون لسانا واحد يعبرون به عن افكارهم ، كانوا يترنمون بنفس الاغانى وتهيج نفوسهم للمعنى الادبى الرفيع الواحد ، واذا ماتدارسوا العلوم ترى آفاق معرفتهم بعيدة واسعة يصوغون تعريفاتها فى قوالب محددة ، وفى لغة واحدة ،«انها العربية » .

وهكذا اقامت اللغة العربية بنشر العلوم والمعرفة وخدمت الاسلام والمسلمين فى جميع بقاع الارض ، ووحدت بين المسلمين وجمعتهم على عقيدة واحدة . . . على عقيدة نابعة من القرآن الكريم ، وبذلك وصل المسلمون الى ماوصلوا من العزة والقوة والشوكة والغلبة والهيبة ، وكانوا على هذه القوة ماداموا متمسكين بألاسلام ، وباللغة العربية ولكنهم حينما تزعزعوا عن عقيدتهم ، وتركوا هذه اللغة ، ورجعوا الى لغاتهم المحلية فى فهم القرآن وفهم الدين ، خسروا خسرانا عظيما ، لان اللغة العربية كانت تجمعهم فى اطار واحدة ، وتوحدهم فى ظل عقيدة واحدة ، وتأتى بهم تحت رأية واحدة ـ الا ، وهى رأية الاسلام ، فكانوا متحدين ، ومعتصمين بحبل الله طبق الآية القرآنية الكريمة :

«واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا » (٣/١٠٣)

وعندما تركوا حبل الله تفرقوا واختلفوا ، وصاروا القمة سألغة لاعداء

الاسلام ووقعوا فى شرك وصاروا بعد ان كانوا اسيادا مسودين وذلک بعدهم عن الاسلام وعن اللغة العربية ، لغة القرآن .

هكذا كانت اللغة العربية فى القرون الماضية ـ واما القرن الخامس عشر الهجرى ، فأهمية اللغة العربية قـد أزدادت أكثـر من ذى قبـل ، لاننـا نرى المسلمين فى الوقت الحاضر مختلفين بعضهم عن بعض ، وكل يحسون بالوحدة والتضامن ضد قوى الطغيان ، والشر . . . قوى الكفر ، والالحاد التى انتشرت فى العالم ، وتريد ان تلقى بالبشرية فى هاوية الهلاک ، والدمار ، وان تبعد المسلمين عن عقيدتهم الاسلامية ، وتستولى على خيرات بلادهم الكثيرة التى ظهرت فى صورة الذهب الاسود ، وغيره من الخيرات التى وهبها الله تعالى للبلاد الاسلامية عامة ، والعربية خاصة ـ

وقد رأينا ان الصراع قد اشتد فى هذا القرن من ذى قبل ، وكل يحاول ان يصل الى الهدف الذى يريده ، غير ان العالم الاسلامى قد استيقظ وتنبه الى مايكيد أعداء الاسلام وهنا تفاقم الامر وبدأ النضال يكاد ان يكون مباشرا وقد رأينا آثارها قد ظهرت فى بعض البلاد الاسلامية بصورة سافرة من قبل الأعداء . . . أعداء الاسلام ـ وبالأحرى اعداء الانسانية اعداء الخير والرفاهية ، فهنا نرى زعماء المسلمين وأمراءهم ، وملوكهم وقادتهم قد تنبهوا الى ذلک ويريدون ان يقوموا بدور فعال يمكنهم من الوقوف والصمود فى وجه هذه التيارات العدوانية الالحادية ، ولذلک يعقدون مؤتمرات فى صورة مختلفة عسى ان يصلوا الى ما يمكنهم من الوصول الى الهدف العظيم ـ وهو هدف القوة والعزة والشرف ، ولكن كيف يمكن ان يصلوا الى ذلک ، فهذا اصر يحتاج الى العمل الجدى ، والمضى فى السبيل المستقيم الموصل الى هذا الهدف الأسنى ، وذلک لا يكون الا بالعودة الى القرآن الكريم ، ولغته العربية التى قامت بما قامت به من الخدمة الجليلة فى سبيل الاسلام والمسلمين ، ونهضتهم العلمية والادبية فى الماضى ، فليست هى

عاجزة عن ان تقوم بهذا الدور من جديد ، و تبلغ بالمسلمين الى نفس القوة ، والعزة لان القرآن الكريم يدعو الى النظرما فى السموات وما فى الأرض ويحضهم على طلب فائلا ان العزة لله ورسوله وللمؤمنين .

والاهتمام باللغة العربية ليس معناه ان نقوم بالدعاية فى الجرائد والصحف والمجلات ، ونشر الكلام بالمذياع ، والتلفزيون ، ونعقد ندوات ، ونلقى كلمات رنانة ، وانما يحتاج ذلک الى العمل الجدى ، وهو ان ندرس اللغة العربية ونتفهمها حق الفهم ، ونتمكن من قواعدها واساليبها وآدابها خير تمكن كى نصل بذلک الى معرفة القرآن والاحاديث النبوية معرفة حقه ، وهذا لا يمكن الا ان تجعل البلاد الاسلامية جميعها اللغة العربية ـ اجبارية فى جميع المناهج الدراسية من المرحلة الابتدائية الى المراحل العالية ، وان تدرّس المواد الدراسية كلها فى هذه اللغة وبذلک نرى بعد عدة سنوات ان هذه اللغة قد اتت بثمارها يانعة ، وقامت بالدور العلمى والادبى بين المسلمين ، كما تؤدى بذلک الدور السياسى ايضا ،وهو دور التوحيد بين المسلمين فى جميع العالم ، لاننا نرى ان اللغة تلعب دوراها مافى توحيد الشعب ، لان الشعب الذى يتكلم للغة واحدة تكون احساسيسهم واحدة ، وقلما يكون هناک مجال للفرقة والتشتت والتباغض والتنافر ـ فاذا جعلنا اللغة العربية اجبارية فى جميع المراحل التعليمية فهى سوف تقوم بمهمة توحيد المسلمين فى جميع الميادين ، بالاضافة الى تقريبهم الى المنبع الاصيل ، والى الحياة الاسلامية الصحيحة ، وازالة البدع والخرافات والأوهام من اذهان المسلمين التى نشأت فيهم بسبب تعدد اللغات الاخرى التى صارت سببا لفرقتهم وتشتتهم ، وبالتالى صارت سببا فى ضعفهم وذلهم ومسكنتهم ، وتجعلهم من جديد فى صف الامم القوية الجبارة ، القائمة على العدل والانصاف والحق .

وبجانب هذا ، سوف تسهل الطرق الى جميع من يريدون ان يستقوا العلوم من المصادر العربية القديمة ، ويتطلع على الكتب العلمية التى الفت فى زمن

الازدهار والتقدم والغلبة فى العصور الماضية .

وأمثلة ذلک موجودة من قبل ـ لاننا قد رأينا ان كثيرا من الشعوب ماكانوا من عرب ، ولكن لما انتشر الاسلام ، ودخل هوءلاء فى الاسلام وجعلـوا اللغة العربية لغة لهم ، وتركوا لغاتهم السابقة ، ودخلوا فى دائرة العرب المسلمين ، وصاروا بعد ذلک يعرفون الى الآن بأسم العرب منهم اهل الشام ، والعراق ، ومصر ولبيا ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش وسودان ، وصوماليا ، وغيرها .

والى جانب الميادين العلمية والادبية ، تقوم اللغة العربية بدور فعال فى المجال السياسى ايضا ، وتلعب دورا أساسيا فى تقريب الأمة المسلمة بعضها الى بعض فنرى ان المؤتمرات تعقد ، والندوات تقام ، ونرى الزعماء المسلمين كل واحد منهم يتكلم بلغته ـ ويقوم شخص بدور المترجم ، ولا يمكن للمترجم مهما اوتى من قوة ومهارة ، ان يترجم ما يجيش فى خاطر صاحب الكلام وكثيرا مانرى ان صاحب المقال يقول شيئا، والمترجم يقول شيئا آخر ، وهنا ينشأ نوع من الخليج بين هؤلاء ـ الزعماء ، وهؤلاء الأفراد ، ويحسب كل واحد نفسه أجنبيا عن الغير ، وبذلک نرى ان هذه المؤتمرات تأتى بالنتائج الى حدما الا ان النتائج المرجوة منها لاتظهر الى الخارج ، فاذا كانت لغة هؤلاء واحدة وكانت هى اللغة العربية لما كان هناک احتياج الى مترجم ، لما كان يحس أى واحد بالغربة ، ولأتت هذه المؤتمرات بالنتائج الحسنة المثمرة ولـرأينا العالم الاسلامى كتلة واحدة لها هيبتها وجلالتها فى العالم كله .

****

المـــــراجـــــع

١) القرآن الكريم

٢) تاريخ الفكر العربى ، للدكتور ، عمر فروخ

٣) باكستان ميں فروغ عربى ، مجموعة مقالات لأول المؤتمر لرقى اللغة العربية فى باكستان .

٤) الامام ابوحنيفة ، ومالک ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهم ، لابى زهرة

٥) تاريخ الاسلام السياسى ، لحسن ابراهيم حسن .

٦) نفع الطيب ، للمقرىء .

٧) تاريخ الادب العربى ، لاحمد حسن الزيات .

تعليـــــــق

كتاب الصيدنة فى الطب

للعلامة ابى الريحان محمد بن أحمد البيرونى

تحقيق

الحكيم محمد سعيد ، والدكتور رانا أحسان الهى،طبع تحت اشراف /مؤسسة همدرد الوطنية كراتشى (باكستان عام١٩٧٣م

الكتاب وترجمته الى اللغة الانكليزية فى جزء ، والجزء الثانى ذيل لهذا الكتاب الفه سامى ك ، همارنيه ، ثمن الجزء الاول ٢٥٠ روبية باكستانية أو ٣٠ دولارا وثمن الجزء الثانى ٥٠ روبية أو ٦ دولارات .

كان الطب عند العرب من علومهم القديمة ، ومن عادتهم اجراء التجارب فى العقاقير والحشائش والحبوب والثمرات والخضراوات والاملاح والاحجار والمعادن والمياه والنبات والاشجار والاتربة . ولما اسلم العرب تقدموا فى العلوم والبحوث العلمية واخذوا الحكمة والعلم اينما كانا بدون تردد أو أى تعصب ، ولم يقتنعوا بما وجدوا عندهم بل درسوا الاشياء وفحصوا الادوية وزادوا على القديم شيئا نافعا وعلما كثيرا .

جرب الاطباء تأثير الالوان والروائح والطقوس والاجواء والازهار والاوراق وعلموا بتجاربهم الاماكن الصحية للسكن والمستشفيات ، وحاولوا اجراء العمليات فى العضو المصاب بالمرض وعمل التخدير وفحصوا الادوية المفردة وعلموا خواصها كما صنعوا الادوية المركبة ، وكل ذلك مذكور فى تاريخ الطب .

ثم ان المسلمين برعوا فى اكتشاف الادوية والعلاجات الشافية ولم يقتنعوا بماورثوه من القدامى بل اضافوا اليه زيادة علمية ، وذلك عندما كان المسلمون يعدون البحوث والدراسات فى علم من العلوم عبادة ، لأن كتاب الله أمرنا ان ندعو « رب زدنى علماء » فكان هم كل واحد من العلماء ان يأخذ ما يجده عند الناس بأسره ثم يحسن اليه ويزيد عليه ويبتكر فيه حتى يتركه لمن يأتى بعده فى أحسن صورة متقدما ولو بخطوة واحدة .

ان الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه للعسل : « مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » . أليست هذه الآية تبعث العلماء على أن يتفكروا فى اجزاء العسل وما تتكون فيه من تفاعلات كيماوية ، وقد ذكر الله فى كتابه الكريم الاشجار والفواكه والمعادن والاحجار وما شاكلها وجعل كل شىء فى الكون آية للناس مثل آية الكتاب فالقراءة لا تقتصر على قراءة الكتاب ولكنها تشمل قراءة الاشجار والاحجار والعقاقير وما فى الكون من الآيات .

ثم ان القرآن المجيد يحث على العناية بالصحة ، ويعلمنا المبدأ الاساسى للصحة بقوله : «كلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

ان هذه التعليمات الحكيمة فى القرآن فتح للمسلمين ابواب العلم والمعرفة والقراءة والدراسة فلم يكتفوا باصلاح العقائد وقراءة الكتب فحسب بل ابرزوا كوامن الأشياء وقرأوا كل ما هو مكتوب فى صفحة الكون وسخروا لهم كل صعب واستفادوا من كل شىء بمعرفتهم سنن الله واذنه فى ذلك الشىء. وكل ما نرى من مؤلفاتهم يخبرنا انهم اجتهدوا غاية اجتهادهم فى معرفة خصائص الاشياء وحقائقه ، وليس كتاب الحيوان وكتاب النبات ، وكتاب الاشجار وأمثالها الا نبذة من مجهوداتهم فى معرفة سنن الله فى الكون وفى انفسهم ، وكانوا يتأكدون أن مسعاهم فى حقول العلوم طاعة ربهم وعبادة .

ان الحكيم محمد سعيد مستشار رئيس باكستان فى الطب مولع بخدمة

الطب والعلوم الاسلامية ، وقد أسس لدراسة الطب مؤسسة همدرد الوطنية التى لاتهتم بصناعة الادوية فحسب بل تهتم بطبع ونشر الكتب العلمية الطبية النادرة . ان مؤسسة همدرد لها الفضل الكبير فى اخراج هذا الكتاب النادر الثمين بعد التعليقات العلمية بمناسبة مرور الف عام على ولادة العلامة البيرونى شكر الله سعيها كما نرجو منها ان تعود لا مثاله .

ان كتاب الصيدنه كما يظهر من أسمه معجم للادوية مرتب حسب الحروف الهجائية ، ومعه ترجمة الى اللغة الانجليزية مع تعليقات نافعة ولانريد ان نتكلم حول الترجمة فى هذا التعليق الموجز فانها أمر هام وصعب جدا والبيرونى عند ما يذكر اسم دواء يحاول ان يعرفه فى بعض اللغات الاخرى كالهندية والرومية والسريانية والفارسية وغيرها كما يذكر وصف الدواء وخاصته بالتفصيل ـ وذيله الجزء الثانى الفه الاستاذ سامى ك . همارنية باللغة الانكليزية يشتمل على معلومات نافعة حول الكتاب ومؤلفه ـ والكتاب جدير بأن لا يخلو منه أى مكتبة لا سيما مكتبة الاطباء .

(عبدالرحمن الطاهر السورتى)

★ ★ ★ ★ ★ ★

67715
67715